**الجامعة : المستنصرية**

**الكلية : الاداب**

**القسم : الانثروبولوجيا والاجتماع**

**اسم التدريسي : هدى كريم مطلك**

**المادة : اسس المدخل الى الانثروبولوجيا العامة**

**المحاضرة : الرابعة عشر**

**م استكمال المحاضرة الثالثة عشر العنصر والتميز العنصري والنظرية العنصرية**

كما أن من المعتقدات الشائعة التي لها علاقة وثيقة بالنظرية العنصرية او بالنظريات المتشابهة لها هي ان للدم علاقة بوراثة الصفات الممتازة و الرديئة . فصار الدم يوصف بانه (ملكي) او (ازرق) او (نقي) او غير ذلك . ان الحقائق العلمية لا تؤيد شيئا من هذا . (فلا علاقة للدم بالصفات الموروثة مطلقا . فالتي تحمل امكانيات ظهور تلك الصفات الموروثة و التي تتحول الى صفات بعد أن تتفاعل مع البيئة الطبيعية هي الجينات التي توجد في الكروموسومات, ولا علاقة لهذه الجينات بالدم ابدا) .

يضاف الى ذلك أن العناصر كلها تتساوى في درجة تطورها . فليس فيها متقدم أو متأخر من وجهة نظر حياتية, بل تقف كلها على نفس البعد من الجد العام للانسان, وكل عنصر يظهر صفات بشرية متقدمة في اتجاه خاص وصفات اخرى متأخرة في اتجاه آخر . ولقد بنت النظرية العنصرية فكرة التقدم و التأخر في العناصر ليس على الصفات الطبيعية الظاهرة فحسب بل وعلى أساس ان لبعض العناصر التي يدعى انها متأخرة صفات عقلية خاصة او نفسيات خاصة فقالوا ان للرجل البدائي ما أسموه (عقلية غير منطقية) (Pre-Logical Mentalitu),أي عقلية لا تعرف التبرير المنطقي . ولقد بذلت جهود كبيرة للتوصل الى شيئ ثابت في هذا المجال . فلجأ العلماء الى اختبار ذكاء عدة جماعات و شعوب بغية التوصل الى قوة عقلية كل عنصر والى اكتشاف فروق بين بعضها ة البعض الآخر . ولم يتوصل من تلك الاختبارات الا الى وجود تفاوت ضئيل بين بعض العناصر . هذا من جهة, و من جهة اخرى فان الاختبارات قابلة للنقد لاستعمالها الفاظا و اشكالا لم يألفها بعض الذين يجري لهم الاختبار, ولانها معدة في اطار عقلي اوربي, فهي دائما في صالح الاوربي دون سواه من افراد الشعوب البدائية . هذا و بالاضافة الى ان تلك الاختبارات لا تأخذ بنظر الاعتبار البيئة الاجتماعية و لا الاطار العقلي لافراد كافة العناصر التي تختبر .

ويرى (گارث) وهو احد علماء النفس التجريبيين (ان الفروق في الذكاء بين العناصر التي توصل اليها الباحثون يمكن ان ترد بساطة الى اثر التنشئة و العناية) (فالعناصر التي بدت اقل ذكاء لم تكن غير ذكية بل كانت غير مثقفة . كما أن كثيرا من البدائيين الذين اختبروا كانوا يكرهون الاساليب و الطرق الاوربية فينعكس ذلك على نتائج الاختبارات) . ثم يقول : (ان اية محاولة منا ان تجرد تلك العناصر, التي نظن نحن انها أحط أو ادنى منا درجة . من حقوقها في التطور الكامل الحر, الذي لها فيه عين الحقوق التي لنا نحن, يجب ان يعتبر دليلا على تبرير التعصب العنصري) . و يقول الاستاذ (ريموند فرث) في كتابه (نماذج بشـــرية) : ان عقــل الانسان البدائي يعمل بعين الاساليب المنطقية للفهم التي تعمل بها عقلنا, و يتفق في هذا الرأي كل من الانثروبولوجي و عالم النفس) . و يقول في موضع آخر من نفس الكتاب (ان القول بان الانسان البدائي اقل منا عقلا أو أن له عقل طفل لا يدل الا على تعصب و جهل قائله) و (ان الرجل الاسترالي او الافريقي لن يتخلف بسبب طبيعة عقله عن بلوغ مستوانا لو ثقف و علم).

كما قام علماء الانثروبولوجيا الطبيعية ببحوث طويلة في هذا الصدد انتهت كلها الى تقرير ان الفروق العقلية بين العناصر معدومة, رغم انها يمكن ان توجد بين الافراد . فلقد قال الاستاذ (فرانزبوس) : ( ان دعوى وجود صفات عقلية خاصة تقررها عوامل بايولوجية لا صحة لها) . و يقول الاستاذ (أشلي مونتگيو) : (ان الصفات العقلية القابلة للقياس في العناصر توحي بقوة انه لا توجد فروق عقلية مهمة بين العناصر مما يمكن ارجاعه الى الصفات الموروثة للجهاز العصبي وحده . وفوق هذا فان الفروق العقلية الموجودة بين الجماعات تبدو اقل من الفروق الموجودة بين اعضاء نفس المجموعة . و تدل كل الدلائل المستمدة من المعلومات المتوفرة لدينا الان على ان ليس لوزن الدماغ و لا لحجمه و لا لشكله و لا لشكل الجمجمة أو الرأس اية علاقة بصفات العقل بين افراد جماعة بعينها . كما لا توجد ارتباط ضروري بين أية صفة من الصفات العنصرية و بين أي نوع من العقلية) .

(و لا قيمة لاي حكم يصدر عن عقلية فرد دون ربط ذلك بالبيئة التي نشأت فيها تلك العقلية) .

و الادلة التاريخية تؤيد ما وصل اليه العلم يصدد التساوي في القابلية العقلية بين كافة العناصر البشرية . فلقد نمت الحضارة و انتشرت متجاهلة الفروق العنصرية, فاخذتها كافة العناصر التي اتيح لها ذلك و أضافت اليها . و عكس ذلك, لم يستطع أي عنصر ان يخلق حضارة مزدهرة او معقدة حين انعزل عن العالم الخارجي . اما ادعاء وجود نفسيات أو حالات نفسية خاصة بالعناصر فلا يوجد دليل علمي عليه . فمن الممكن تفسير كل الاختلافات النفسية بين الجماعات او العناصر, ان وجدت, على أسس حضارية . فكل مجتمع يقر انماطا نفسية معينة و ينكر اخرى طبقا لتقاليده و نظمه .

لقد رأينا انه لا يوجد تفاضل موروث بين العناصر لا من الناحية الطبيعية و لا العقلية و لا النفسية . هذا ما يقوله العلم, ولكن الواقع اننا كنا و لا نزال نشاهد امثلة مؤلمة على التمييز العنصري يفرضها الرجل الاوربي الابيض على العناصر السوداء و غير السوداء من الشعوب البدائية التي اتصل بها فحكمها . فكلنا يعرف الامتهان و الاضطهاد بل و التقتيل الذي يتعرض له الزنوج في الولايات المتحدة الامريكية . فعلى الزنوج, خاصة في الولايات الامريكية الجنوبية حيث يشتد التمييز العنصري و يظهر بأبشع صوره, ان يركبوا عربات خاصة, و ينتظروا في محطات السكك الحديدية في غرف منفصلة عن غرف البيض, و لا يحق لهم ارتياد مطاعم البيض, او الاقامة في فنادقهم, او مشاركتهم في مدارسهم . كما ان الزنوج لا يعطون فرصا مساوية لفرص البيض في الكسب. ولا يزال الامريكيون يمارسون الـ (Lynching), وهو اتهام الرعاع الامريكين للزنوج بشكل كيفي و معاقبتهم بلا محاكمات, فيصلبونهم على الاشجار و يقتلونهم شر قتيل, تحت سمع الحكومة و بصرها . ويتخذ التمييز العنصري في جنوب افريقيا شكلا خطيرا(\*), كان ولا يزال يشغل بال العالم المتمدن . فالزنوج هناك يعيشون في اجزاء مفصولة من المدن, ولا يسمح لهم الا بمزاولة مهن معينة, و يمنعون من المدارس, و تمنع حتو الكنائس عن فتح مدارس تبشيرية اهم, ولا يسمح للزنجي في بلاده تلك ان ينتقل من مكان لآخر الا بأذن خاص . وليس التمييز العنصري محصورا في امريكا و جنوب افريقيا, بل هو موجود, ولو بأشكال أخف حدة من بريطانيا, و اجزاء اخرى من أوربا .

فما سبب هذا التمييز العنصري ؟ قبل القرن السادس عشر لم يكن العالم شاعرا بالعنصر و لا بالعنصرية, ولم يكن لديه سبب يحمله على ذلك . ولكن حين اكتشفت امريكا و الطرق البحرية الى آسيا, و حين ظهر الاستعمار, و صار الاوربيون يحكمون شعوبا و عناصر عدة, و يقيمون من انفسهم طبقة ارستقراطية حاكمة, وحين ظهرت تجارة العبيد, ظهرت الحاجة عند الاوربي للتمييز العنصري . فلقد وجد الاوربيون انفسهم امام شعوب بدائية بسيطة تقطن مناطق واسعة غنية . فرأوا ان مصالحهم الاستغلالية تقتضي ضمان عدم مقاومة تــلك الشعـــوب و العناصر للاستغلال الاوربي او عرقلته . فحاربوا بعض تلك الشعوب التي انكرت عليهم امتلاك بلادهم حروب ابادة و افناء, كما حدث للهنود الحمر الذين ابيد قسم كبير منهم و شرد و ازيح القسم الاخر عن كافة المناطق الساحلية و السهول الغنية في الامريكتين الشمالية و الجنوبية . وقد اقتضت المصلحة الاستغلالية عينها ان ينقل الاوربيون اعدادا ضخمة من تــلك الشعـــوب البدائية من مواطنها الى اماكن نائية غريبة ليتاجروا بها في المزادات العلنية و ليسخروها للعمل كالماشية في المزارع و الضيعات في المناطق التي تسابقوا للاستيلاء عليها في العالم الجديد, و كانت دائما اكبر من ان يستطيعوا استغلالها بمفردهم . فبدأوا ينقلون العبيد بمئات الآلاف الــــى الامريكتين الشمالية و الجنوبية و جزر الهند الغربية, و هذا أصل وجود الزنوج في تلك المناطق .

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(\*) و ذلك قبل سقوط و الغاء (نظام التمييز العنصري) في جنوب افريقيا في اوائل العقد الاخير من القرن العشرين .

بدأت تجارة العبيد في القرن السادس عشر . و كان أول من بدأها البرتغاليون, ثم تبعهم الانجليز و الفرنسيون, ثم نزل الهونديون الى ميدان هذه التجارة , و تبعهم في عام 1720 الامريكيوون (\*). فأشاد الاوروبيون لهم على الساحل الافريقي قلاعا تدار منها تلك التجارة, و اراسلوا سماسرتهم يجوبون الادغال و الاحراش يصطادون العبيد اصطيادا . ولقد استخدم تجار العبيد الرؤساء و الملوك المحليين و سطاء, فاغدقوا عليهم المال . وكانوا يسلمون الرئيس برميل الخمر بيد و البندقية باخرى و يدفعونه لحصاد بشري لم تعرف الانسانية له مثيلا . فصار الرؤساء يحارب بعضهم بعضا طمعا في الحصول على اسرى الحرب الذين كانوا يباعون لتجار العبيد . وكان العبيد ينقلون برا مئات الاميال, يساقون بالسياط مكبلين بكتا من الخشب و مربوطين بالحبال . وحين يصلون القلاع تكوى اجسادهم بقطع من حديد محمي تحمل العلاقات الفارقة للشركات التي تتاجر بهم, ثم يحشرون في سفن صغيرة داخل عنابر قذرة مظلمة . و كان العبيد يهلكون اثناء سوقهم على البر الافريقي تحت تأثير السير الطويل المرهق, و الجوع و الرعب, ولفح الشمس, و سياط السماسرة . وكانت النسوة منهم يحاولن الانتحار بابتلاع كميات ضخمة من الطين للتخلص من العذاب الاليم الطويل . و هلكت اعداد كبيرة منهم بالجدري و الزحار و دوار البحر اثناء نقلهم عبر المحيط . وكانت سفرة السفينة التي تقلع من ساحل غينيا بخمسمائة عبد فتصل الى جامايكا بثلاثمائة فقط تعتبر ناجحة للغاية و حين منعت تجارة العبيد و بدأت الحكومات الاوربية تعقب السفن التي تزاولها سرا كان ربانية تلك السفن لا يترددون في افراغ شحناتهم البشرية في جوف البحر حين يشعرون انهم مطاردون كيلا يعقوا تحت طائلة القانون . و نقل بهذه الظروف اللاانسانية ما يقرب من عشرين مليونا من زنوج افريقيا الغربية, هلك منهم ستة ملايين عبد قبل وصولهم, ووصل مليونان الى الولايات المتحدة الامريكية و اثنا عشر مليونا الى امريكا اللاتينية . وكان تجار العبيد يبيعون قسما من شحنات سفنهم في جزر الهند الغربية و يشترون بثمنها عصير قصب السكر ثم يذهبون بالعصير وبما تبقى لديهم من عبيد الى امريكا فيبيعون العبيد في المزادات و يقلبون عصير القصب الى (رم) وهو الخمر الذي يدفعونه ثمنا للعبيد في افريقيا . ثم تقلع السفن من امريكا محملة خمرا لتعود من افريقيا محملة عبيدا . اولئك العبيد الذين اصطيدوا كالوحوش, و بودلوا بالخمر و البارود كالسلعو وجلبوا عبر المحيط تحت ظروف تخجل الانسانية, كانوا منذ القرن السادس عشر و لا يزالون يعانون مآسي و مظالم التمييز العنصري الذي فرضه عليهم الرجل الابيض في العالم الجديد .

لقد أدعى الرجل الابيض تبريرا للتمييز العنصري عدم قدرة الانسان الملون على تسير شؤونه بنفسه . وابتكر في المجال السياسي اسطورة (الوصايا) و (تمكن الشعوب البدائية من الوقوف على اقدامها) . كما قال ان تضريف الشؤون الاقتصادية للانسان البدائي يجب ان تترك في أيد اوربية (لضمان سعادة الانسان البدائي) .

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(\*) ان غالبية الزنوج الذين جيء بهم مكبلين بالاغلال الى سواحل امريكا الشمالية هم اصلآ من ساحل غانة . ووصلت اول (شحنة) رقيق الى ولاية فرجينيا الامريكية عام 1619 .

=تحريم هذه التجارة دوليآ .ينظر : المصدر السابق , ص 161-162

أما في الميدان السياسي فتصرف الرجل الاوربي مع الشعوب الملونة أوضح من ان تقف عنده . كما ان تصرفه في المجال الاقتصادي يمثل ابشع اشكال الاستغلال الذي لا يترك أي مجال للانتفاع الاقتصادي لاصحاب البلد الذي يستغله .

و يتساءل الاستاذ (ريموند فرث) : (لماذا يوجد هذا الانكار للمساواة في الحقوق مع اولئك الزنوج) ؟ و يجيب عن هذا السؤال : (ان الاسباب عميقة الجذور, و لكننا لا نستطيع ان نرى الا القليل منها . واحد تلك الاسباب هو الاستغلال المقصود . فالرجل الابيض ينشد العمل الرخيص . وسبب اخر هو الخوف من المنافسة في المجال الاقتصادي, و على المدى البعيد في الامتيازات الاجتماعية و السيطرة).

كما ان الرجل الابيض يريد ابقاء تلك المناطق الشاسعة تحت سيطرته, و ذلك لا يتسنى له الا اذا أبقى سكان المناطق المستغلة على وضعهم, وهذا لا يتحقق اذا هو ساواهم بنفسه .

و الجدير بالذكر هنا ان التمييز العنصري لا يوجد بصورة ضرورية اينما وجد الرجل الملون و الرجل الابيض او حيثما تعايشت عناصر مختلفة . ففي بعض المناطق يعيش الاوربي و الزنجي دون حواجز . كما ان لدينا مثلين رائعين لامكانية تعايش اكثر من عنصر واحد دون تمييز عنصري . اولهما في نيوزيلندا حيث يعيش الاوربيون النازحون جنبا الى جنب و باختلاط تام مع (الماؤوري) اهل المنطقة الاصليين . فيعيش (الماؤوري) بطرقهم الخاصة و ينتخبون ممثليهم في مجلس الامة النيوزيلندي, و يسهمون في كافة نواحي الحياة بحرية, لدرجة يستطيعون معها الوصول الى اعلى المناصب في الدولة . و خير دليل على مركز (الماؤوري) الاجتماعي في نيوزيلندا هو أن النسل الناجم عن تزاوج الاوربيين, (الماؤوري), و تزاوج المجموعتين . أمر كثير الحدوث في نيوزيلندا, يميلون الى التأكيد على صلتهم بـ (الماؤوري) عوضا عن ان يخفوا ذلك و يدخلوا انفسهم في عداد الاوربيين, و هو امر مسموح به قانونا في تلك البلاد . و المثل الثاني هو جزر (الهاوايي) التي تدعى بحق (بودقة انصهار المحيط الهادي) فهناك يعيش بلا حواجز و لا تمييز عنصري سكان الجزر الاصليون, وهم پولينيزيون, و الامريكان و الصينيون و اليابانيون و البرتغاليون و الفلپينيون, وقد تزاوج بعضهم مع البعض الآخر و تزاوج نسلهم فاختلطت عناصرهم اختلاطا شديدا .